تقـــــديم

ترجمة رسالة من جناب الدكتور رينيه برناند مدير المصحة الأسبق
بمناسبـــة انقضاء عشرين عاماً على بدء العمل بالمصحة

عزيزى الدكتور عبد الرءوف :

إننى لأستجيب لدعوتك إياى للمساهمة فى رسالتك التى تزمع كتابتها بمناسبة مضى عشرين عاماً على إنشاء المصحة ؛ ولقد رأيت من الأفضل أن أرسل لك هذا الخطاب ؛ ويسرنى أن أراه منشوراً بين ما ستذكره فيها عن أعمال المصحة وأخبارها ونواحى نشاطها .

الدكتور رينيه برناند

ذلك لأننى دائم الشعور برباط وثيق من المحبة العميقة والاهتمام الدائم بمصير المصحة التى عملنا معاً على تنظيمها خلال (١٩٢٦ إلى ١٩٢٩) تلك السنوات المليئة بالصعاب وحلو الذكريات . وإن هذه الفترة من حياتى لتتزاحم ذكرياتها على خاطرى متلاحقة.

لقد تركنا وطننا سويسرا — بلاد المراعى والغابات والمياه الدافقة — لنجد أنفسنا فجأة وسط الطبيعة الصحراوية الجرداء ، ولم تكن مصحتنا العتيدة أكثر من بنيان متهدم ؛ وكان علىّ أول الأمر أن أجد مأوى لعائلتى : زوجى بصحتها الحساسة ، وأطفالنا الخمسة ، وأصغرهم عمره أقل من عام .

وقد اخترنا ضاحية المعادى النفيحاء لسكنانا . ولكن بعد شهر من مقامنا بها قالت لى « مدام برناند » زوجى : « ليس لنا مقام فى هذه الجنة ، لقد جئنا إلى مصر فى سبيل المرضى ، فلنذهب لنعيش فى جوارهم !! »

وانتقلنا إلى حلوان حيث خصصت لنا وزارة الأوقاف فى مبنى المصحة مسكناً ظريفاً .

وكان لزاماً علىّ أن أتعلم العربية — وهى لغة لا تبدو فى الواقع سهلة — غير أننى سرعان ما تعلمت على الأقل كلمة «معاهش» ، تلك الكلمة التى كم استنجدت بها فى الملمات ، بحيث أدخلت استعمالها فى سويسرا ؛ وكان علينا فوق ذلك أن نندمج فى بيئتنا الجديدة ، وأن نعمل جاهدين فى تنظيم البناء المتسع الأرجاء الذى يجب أن يعد على وجه السرعة ، ليصبح ملاذاً لمرضى السل البائسين فى مصر .

وإنك لتذكر يا صديق العزيز تلك الجهود الذى بذلناها . لقد اتسع صدر وزارة الأوقاف لمطالبنا المتعددة المتتالية . وقد لقينا أحسن الاستعداد والتشجيع من ولاة الأمر بالوزارة «حضرة صاحب السعادة ابراهيم فهمى باشا (وكيل الوزارة حينئذ) وحضرة صاحب العزة الدكتور سالم بك هنداوى ، وحضرة الدكتور نظيم » ولكننا كنا نحس أحياناً أن العبء الذى ننوء به أثقل مما تحمله أكتافنا وتحتمله قلوبنا ؛ وكان يبدو لنا أن المهمة الملقاة على عاتقنا مستحيلة التحقيق فى الوقت المحدود المقدر لها . ولكن صوتاً كان يتردد صداه فى طوايا ضميرنا باستمرار : أن لابد من إنقاذ المسلولين فى مصر ؛ وكان هناك إحساس عميق يخالجنا يستحثنا ، هو الشعور بالتبعة التى شرفنا جلالة الملك المعظم فؤاد الأول بتحميلنا إياها ؛ وكان لزاماً علينا أن نثابر جاهدين للقيام بأعبائها .

وهكذا رويداً رويداً بفضل تآزر الجميع بدأت المصحة تصبح صالحة لأداء رسالتها ، وتوافد المرضى رعيلا إثر رعيل ، ونال الشفاء كثيرون منهم ، وثبت أن أثر الجو الصحراوى فى شفاء السل أثر مدهش ، خصوصاً فى فصل الشتاء ؛ وحتى

أثناء شهور الصيف — حين كنتَ تقوم وحدك بادارة المصحة ، موفور النشاط حى الضمير — لم تبطىء سرعة التقدم . ولقد أيدت هذه الحقائق ما امتاز به الملك المعظم فؤاد الاول من الزكانة وبعد النظر ، إذ كان أول من فكر فى اختيار حلوان مكاناً لإنشاء المصحة .

وإنك لتذكر — يا زميلى العزيز — ذلك اليوم الذى لا ينسى ، ١٩ فبراير سنة ١٩٢٨ ، تاريخ الافتتاح الرسمى ، فقد كان جزاءنا على جهودنا ، كان يوماً صحواً من أيام وطنك الجميل ، تقاطر فيه سراة القاهرة ووجهاؤهم ليحيطوا بالمليك حين قدم وزير الأوقاف صاحب المعالى الغرابلى باشا إلى مولاه (مصحته)

ولقد جاس المليك خلال المصحة يواسى مرضاها ، ويحييهم بعطف ؛ وأعجب جلالته بملابس الخدم ، ونظافة غرف المرضى ، وبالكل (الناموسيات) وقد زانتها شرائط حمراء فى أقسام الحريم ، بل فى أقسام الرجال أيضاً ، وحتى المباصق كانت غير عاطلة من الزينة . . .

ولقد شعرت بشىء من الحرج حين سألنى المليك : « أهذه هى الحال دواما ؟ »

وقد تطلع المرضى من الشرفات إلى مليكهم يحيونه بحماس حين نزل إلى الحديقة ، فقال لى جلالته باهتمام وعطف : «قل لهم أن لا يرفعوا أصواتهم لئلا يؤثر ذلك فى صدورهم ! ! » ولكن تحياتهم ودعاءهم للمليك واعترافهم بجميله كانت تتعالى وتتزايد .

وقد سار كل شىء بعد ذلك على ما يرام ، اللهم إلا بعض المضايقات المشهورة التى سببتها لنا طريقة الصرف (مجارى المصحة) ، إلا أننى أرجو أن تكون

غابة شجر الكافور التي كان مزمعاً إنشاؤها قد تكاثفت الآن ، وتولت التخلص من مياه المصحة الموبوءة .

وأخيراً حل يوم مُتجهم حزين فى أواخر صيف عام ١٩٢٩ : يوم الوداع ..

فلقد كانت صحة زوجى ومشكلة تعليم أولادى الخمسة عوامل حاسمة فى تقرير الرحيل ، إذ كان يسعدنى أن أظل فى مصر بضع سنوات أخرى لأساهم فى إنشاء المستوصفات وغيرها من معاهد العلاج .

وقد كان وداعنا المؤثر للمرضى وأحبابنا فى مصر فراقاً مادياً لا غير ، أما عواطفنا وأفكارنا فظلت على اتصال دائم بهذا البلد الذى اعتبرناه وطنا لنا خلال ثلاث سنوات كاملة .

لقد كتبتَ لى اليوم — أيها المدير العزيز — وطى خطابك صور شاهدة على مبلغ مافى عملك من مجهود قوى منتج . فاسمح لى أن أهنئك على هذا الجهد البديع وتلك النتائج الرائعة . وانى لأعرف أن مصحة فؤاد تتولاها أياد قديرة ، وليس هناك شيء فى الوجود يزيد نفسى رضى وشكراً لله أكبر من علمى أن عملنا العظيم الذى اضطلعنا به معاً اطلاع الرواد منذ عشرين عاماً لم يكن عبثاً بل انتج هذه الثمار لصالح بلد سأظل أنا وعائلتى نكن له الحب دائماً .

وأرجو أن تبلغ جميع أحبائنا فى مصر وفى حلوان تحياتنا القلبية ، وأطيب تمنياتنا لمستقبل وطنك الجميل ، ومستقبل مصحة فؤاد الأول على الأخص ، ولأولئك المرضى الذين سيقصدونها ليجدوا فيها الصحة والعافية ، مع تحيات المودة من

الدكتور رينيه برناند .

لوزان (سويسرا) فى ٨ يونيه ١٩٤٦

تمهيـــد وإيضاح

لكفاح السل فى مصر خلال العشرين عاماً الأخيرة قصة رائعة شائقة تستحق التسجيل لطرافتها. وأحداثها لا تزال حية ماثلة فى أذهان الذين خاضوا غمار معاركها الأولى، وشهدوا وقائعها من وراء الستار، وما زالوا إلى اليوم أحياء يستعيدون بينهم وبين أنفسهم هذه الذكريات حلوها ومرها، دون أن يعنى أحدهم بتدوين هذه الذكريات، ونشرها على الملأ، لأن تيار الحياة يجرفهم معه، وأعباءها تثقل كواهلهم، فلا تواتيهم الظروف للعكوف على الكتابة والنشر.

ولقد قُدر لى فى صدر شبابى أن أشهد المعركة من بدايتها الأولى، وأن يدفعنى حماس عجيب إلى أن أخوض غمارها جندياً بسيطاً مغامراً بكل ما أملك من جهد. وكان القدر يسوقنى أمامه، وأنا فى اندفاعى لا أتلفت إلى الوراء، ولا ألوى على شىء. وها أنذا بعد أكثر من عشرين عاماً، أجد نفسى فى مكانى المختار — مصحة فؤاد الأول بحلوان — أرقب معركة كفاح السل فى مصر، وأشهد أحداثها، وأسجل تطوراتها فى هدوء وصمت.

وهذه الرسالة القصيرة، التى سأتناول فيها ذكرياتى عن مصحة فؤاد بحلوان منذ إنشائها إلى الآن، لا تهدف إلى أبعد من تسجيل لمحات عابرة عن جهود المعهد الذى فكر فيه وأمر بانشائه ورعاه عاهل عبقرى عظيم، هو المغفور له حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، الذى تتشرف المصحة بحمل اسمه الكريم.

فمن حق المصحة علىّ، وقد مزجت حياتى بحياتها هذا الأمد الطويل، أن أؤرخ لها، وأن أسجل بعض جهودها فى إيجاز بالغ.

وأنى لأغالب فى نفسى حين أتصدى لهذا الحديث حياء يكاد يمنعنى عن الكتابة ، لولا إيمانى بأن نزعة أداء الواجب يجب أن تتغلب على كل اعتبار آخر ، فالحديث الذى يتعين على أن أسوقه ليس أكثر من رواية جندى صغير ساهم بنصيبه الضئيل المحدود فى عمل إنسانى جليل ، وهناك آخرون من حقهم علىّ أن أسجل لهم ما بذلوه من جهود ليس من الانصاف أن تطوى أخبارها عن الناس إلى الأبد .

إن فكرة إنشاء أول مصحة فى مصر لعلاج مرضى السل هى أول خطوة إيجابية خطتها البلاد فى سبيل كفاح مرض فتاك عضال ، كان يخترم آجال ضحاياه الكثيرين فى مصر فى صمت مروّع رهيب ، دون وازع ولا رادع : وسنرى كيف تطورت هذه الفكرة وأصبحت حقيقة واقعة ، وما اكتنف التنفيذ من عقبات وصعاب .

وفى وسعى أن أؤكد تأكيد عليم ، أنه لولا النجاح الذى لقيته هذه المصحة لما تطور كفاح السل فى مصر هذا التطور السريع الذى يشهده الذين عاصروه منذ البداية بكثير من الغبطة والاستبشار .

ومن حق القارىء الكريم أن أصارحه بأننى حين بدأت أفكر فى إعداد هذه الرسالة قدرت أنها يجب أن لا تكون رسالة علمية جافة ضافية الذيول لايهضمها غير المشتغلين بكفاح السل ، بل قررت أن أجعل منها قصة إنسانية سلسة متسقة السياق ، لاتخلو من طرافة يستسيغها القارىء العادى فى سهولة ويسر ، ويستوعب محتوياتها فى وقت جد قصير دون مشقة أو ملل .

وللراوى تمهيد لابد منه ليبدأ القصة من أولها :

فى شتاء سنة ١٩٢٥ ، بعد أن انتهيت من بعثتى الدراسية فى جامعة كمبريدج

منظر عام للمصحة من الواجهات القبلية . ويُرى الجناح الشرقى إلى اليمين ، والجناح الغربى إلى اليسار .

والأخير هو الذى استُخدم فقط عند إنشاء المصحة فى سنة ١٩٢٦ .

ويلاحظ أن نصف الجناح الشرقى فقط يبدو فى الصورة أما نصفه البحرى فغير ظاهر .

بانجلترا ، كنت أقضى فى ليزان (Leysin) بسويسرا إجازة دراسية عند الدكتور روليبه (Dr Rollier) الذى يعالج مرض السل الجراحى بأشعة الشمس . وقد ترامى إلىّ بمحض الصدفة ، من طالب طب مصرىّ كان يستشفى فى ليزان ، أن هناك مفاوضات بين الحكومة المصرية وجناب الدكتور رينيه برناند (Dr René Burnand) مدير المصحة الشعبية بليزان ليتولى إدارة مصحة مصرية فى حلوان تزمع الحكومة إنشاءها لعلاج أمراض الصدر .

وكان هذا الخبر العادى العابر قبساً إلهياً فتح أمامى آفاقا مترامية من الآمال . ولم أكن قد زرت حلوان من قبل ، ولكنى كنت أسير فى طرقات ليزان الجبلية اتطلع إلى ما فيها من مصحات شامخة ، فأرى بعين الخيال مصحة مصرية فى حلوان ، قائمة على سفح ربوة عالية ، وأننى أسير فى طرقاتها وأدخل حجراتها وأرعى مرضاها ناشطاً دءوبا .

ولست أدرى إلى اليوم مبعث ذلك الشعور الغلاب الذى استولى علىّ بحيث قرّ فى ذهنى أننى سأكون المساعد المصرى للمدير السويسرى للمصحة المصرية التى لم تكن فى ذلك الحين غير مجرد فكرة لا أدرى عن ظروفها شيئاً ؛ ولكنه الشباب والخيال الشاعرى الجامح هما اللذان صورا لى أنه لا مستحيل على القلب الشجاع ، فتركت ليزان إلى دافوس بلاتز (Davos - Platz) أكبر وأقدم مراكز المصحات فى سويسرا لأعد نفسى لحمل الرسالة التى لم ينتدبنى أحد لحملها !

وحين عدت إلى مصر قصدت وزارة الأوقاف فى اليوم التالى لوصولى والتمست مقابلة حضرة صاحب العزة الدكتور سالم بك هنداوى ، مدير القسم الطبى فى ذلك الحين ، دون معرفة سابقة ، بل دون أن أتزود بأية توصية أو شفاعة ؛ وسألته أن يتيح لى فرصة خدمة وطنى فى منصب وكيل مصحة فؤاد .. وهو طلب جرىء حقاً من طبيب شاب مغمور لا وسيط له ولا شفيع . . .

ولقد كان هذا اللقاء الأول بيني وبين هذا الرجل الكريم النبيل نقطة تحوّل حاسم فى حياتى العملية ؛ وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأؤدى له بعض مافى عنقى من دين ، بأن أعلن على الملأ جاداً صادقا ، أن حضرة صاحب السعادة الدكتور سالم هندواوى باشا هو الذى أخذ بيدى إلى منصب وكيل مصحة فؤاد الأول دون معرفة سابقة أو شفاعة لاحقة ، ولولا مافى طوايا هذا الرجل النادر الصفات من أمانة وإخلاص وشرف ونبل لفاز بهذا المنصب غيرى ممن تزودوا بشفاعات الكبراء ووساطة ذوى الجاه والنفوذ . . .

ولقد ظلت مصحة فؤاد الأول بحلوان منذ ولجتُ بابها لأول مرة ، ولاتزال إلى الآن ، شغل حياتى الشاغل ، والميدان الذى اخترته لبذل جهدى فى خدمة وطنى ، وإنى لأدين لها بكل شىء ، وأعتز بها كما يعتز الابن البار بأمه الرءوم ...

وها أنذا فى عيدها العشرين أروى قصتها ، وأتحدث عنها إلى الناس فى حنانٍ وإحساس عميق بالوفاء والاخلاص ، باعتبارها المدرسة التى أتلقى إلى اليوم بين جدرانها الدروس ، وأستجمع التجارب ، وأختزن الذكريات ، وأستقبل كل يوم وفوداً متلاحقة من أبناء وطنى المصدورين ، الذين أخذتُ على نفسى عهدا أمام الله أن أقضى الحياة فى خدمتهم راضياً مغتبطاً سعيداً ، فما عاش مَن عاش لنفسه فقط .